﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴿٥٩﴾﴾ [يونس: 59]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

في مناسبةِ هذه الآيةِ لما قبلها ثلاثةُ أوجهٍ:

صنائعُ الصَّنائع يُنادي بعضُها على بعضٍ

الأوَّل: لَمّا ذكر الله تعالى سابقًا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَتْكُم مَّوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ﴾، وكان المراد بذلك كتاب الله المشتمل على التحليل والتحريم، وذكر في الآية بعدها وجوب العمل والفرح بما تضمَّنه كتابه فقال: ﴿قُلْ بِفَضْلِ ٱللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِۦ فَبِذَٰلِكَ فَلْيَفْرَحُواْ هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾؛ أعقبَ ذلك ببيان فسادِ شرائعهم، وأحكامهم من الحلال والحرام من غير مستندٍ في ذلك إلى وحي، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[1].

الثاني: لَمّا تحدَّثت الآيات السابقة عن اضطراب تصوُّر المشركين للألوهيَّة، وتكذيبهم بالبعث والقرآن، وعن إبطالِ دعاويهم بأوضح حجَّة أعقبت الآيات ذلك بإظهار خَطَلِ عقولهم واختلال تكذيبهم، فقد ارتَبَكوا في دينهم بما يلزمهم منه مماثلة الحالة التي أنكروها، فقال سبحانه مقيمًا الحجَّة عليهم: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾[2].

الثالث: لَمّا ختم الله الآية السابقة بقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ – أي: فضل الله ورحمته خيرٌ من أموال المشركين التي يجمعونها – أعقبَ ذلك تعنيفًا لهم في تحكيمهم؛ إذ بيَّن في هذه الآية أنَّ هذه

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 6/77.

(2) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207 - 208.

الأموال هي التي رزقهم الله إيّاها، فجعلوا منها حلالًا، ومنها حرامًا افتراءً على الله، فقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾[1].

فالمناسبة بين الآيتين: هي بيانُ أنَّ هؤلاءِ الجامعين لمتاعِ الحياةِ الدُّنيا قادهم هوسُهم في الجمعِ إلى استحلال الحرامِ، والافتراء عليه، فهو من ترتيب شنائعِ الأعمال على غيرها.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿أَرَءَيْتُم﴾: الراء والهمزة والياء أصلٌ يدلُّ على نظرٍ وإبصارٍ بعينٍ أو بصيرة، والرَّأْيُ: ما يراه الإنسان في الأمر[2]، والرُّؤية بالضم: إدراكُ المرئيِّ، وذلك أضرب؛ الأول: النظر بالعين التي هي الحاسَّة وما يجري مجراها، والثاني: بالوهم والتخيُّل، والثالث: بالتفكُّر، والرابع: بالقلب، أي: بالعقل[3]، والرُّؤْية: النظرُ بالعين والقلب، والرُّؤْية بالعين يتعدّى إلى مفعول واحد، وبمعنى العلم يتعدّى إلى مفعولين، وإذا عُدّي رأيت بـ (إلى)؛ اقتضى معنى النَّظر المؤدّي إلى الاعتبار، و﴿أَرَءَيْتُم﴾: من رأى العِلميَّة[4].

والمراد في الآية: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ رأى العِلميَّة، والمعنى: أخبروني أنتم وأعلموني[5].

2) ﴿أَذِنَ﴾: الهمزة والذال والنّون أصلان متقاربان في المعنى، متباعدان في اللفظ، أحدهما أُذُنُ كلِّ ذي أُذُنٍ (الجارحة)، والآخر العِلْم والإعلام، تقولُ العرب: قد أَذِنْتُ بهذا الأمر: أي: عَلِمتُ، وآذَنَني فلان: أعلمني[6]، والأَذانُ: الإعلام، وأَذِنْتُ له في كذا: أَطْلَقْتُ لهُ فعله[7]، والإِذْنُ في الشيء: إعلامٌ بإجازته والرخصة فيه، والاستئذانُ: طَلَبُ الإذن[8]، والإذْنُ يأتي بمعنى الإباحةِ، أو القبولِ والتَّمكين، مع العلم بقدرِ ما مُكِّن فيه[9]. والمراد في الآية بـ ﴿أَذِنَ لَكُمْ﴾ موافق للمعنى اللغويِّ.

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207 - 208.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (رأى).
(3) الراغب، المفردات، ص: 374.
(4) ابن منظور، لسان العرب، والزَّبيدي، تاج العروس: (رأي).
(5) النسفي، مدارك التنزيل: 2/28، والشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 6/3620.
(6) ابن فارس، مقاييس اللغة: (أذن).
(7) الجوهري، الصحاح، والفيومي، المصباح المنير، والزَّبيدي، تاج العروس: (أذن).
(8) الراغب، المفردات، ص: 71.
(9) جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (أذن).

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

التَّحليلُ والتَّحريم عن غيرِ إذنِ الشَّرع افتراءٌ على الله عظيم

يأمرُ الله تعالى رسولَه ﷺ أنْ يقول للمشركين: أخبروني، وأعلموني هذا الرزق الذي خلقه الله تعالى لكم، وأفاضه عليكم، وجعله حلالًا لكم لتنتفعوا به، فحرَّمتم بعضَه على أنفسكم، وأحللتم بعضه، وقل لهم: هل أباحَ الله لكم، ورخَّص تحريم ما حرَّمتم، وتحليل ما أحللتم، أم أنَّكم بهذا التحريم والتحليل تختلقون على الله الكذب؟ وفي هذا إنكارٌ وتعنيفٌ لهم على ما ابتدعوه من التحليل والتحريم، وإظهارٌ لكذبهم فيما نسبوه إلى الله.

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتةُ الافتتاح بفعلِ الأمر في: ﴿قُلْ﴾ وتكرارِه:

خطابٌ يُظهرُ أهميَّةَ المقولِ ومقامَ النَّبيِّ الرَّسول

افتتحَ البيانُ الإلهيُّ الآية بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾، وهو أمرٌ للنَّبيِّ ﷺ في قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم﴾؛ لأغراضٍ عدَّة منها:

الأول: قصدُ توجيهِ الأسماع إلى مضمون ما سيُلقى عليهم[1]، أي: لبيانِ أهمية المقول.

الثاني: الإشارة إلى أنَّ النَّبيَّ ﷺ مجرَّدُ مبلِّغٍ ورسولٍ أمينٍ لا يغيِّر، ولا يبدِّلُ حرفًا من عنده، وأنَّه هو الوحيد المكلَّف بإبلاغهم وإنذارهم، بما يدلُّ على علوِّ مقامه ﷺ.

الثالث: يحتمل أنْ يكون الأمر ﴿قُلْ﴾ خطابًا للجميع، فأمرَ كلَّ واحدٍ بأنْ يقول ذلك[2]، وفي هذا دعوةٌ إلى الحوار وإقامة الحجَّة.

أمّا ﴿قُلْ﴾ الثانية ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ فهي تأكيدٌ لـ ﴿قُلْ﴾ الأولى، أي: تأكيدُ الأمرِ بالاستخبار؛ لزيادة إشرافِ الأسماع عليه[3]،

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/207.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/339.
(3) الزمخشري، الكشاف: 2/354، وأبو حيان، البحر المحيط: 6/77، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/208.

والاهتمامِ بمضمونه، وهو تقريعُهم وتعنيفُهم على ما ابتدعوه من التَّحليل والتَّحريم، وإظهار كذبهم فيما نسبوه إلى الشَّرع.

الغرضُ من الاستفهامِ في: ﴿أَرَءَيْتُم﴾، و ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾:

قوله تعالى: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ متعلِّق بقوله: ﴿أَرَءَيْتُم﴾، ولذا فإنَّ الاستفهام في ﴿أَرَءَيْتُم﴾ تقريريٌّ، باعتبار إلزامهم بأحد الأمرين؛ إمّا أنْ يكون الله أذن لهم، أو أنْ يكونوا مفترين على الله، وقد شِيب التقريرُ في ذلك بالإنكار على الوجهين[1].

تقريرُ الوحيِ وإلزامُ المنكرين لهُ من المشركين بالدَّليلِ العقلي

نكتةُ الالتفاتِ من الغيبةِ إلى الخطابِ في: ﴿أَرَءَيْتُم﴾:

التفتَ البيانُ الإلهيُّ من الغَيبة بقوله: ﴿هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾ - التي فيها إشارة إلى مقْتِه للمشركين، وتبعيدهم - إلى الخطاب بقوله: ﴿أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم﴾؛ وذلك لِما في الخطاب، - أي: مخاطبتهم - من التَّنبيه الشديد، والإيقاظ بالوعيد؛ لبيان ضلالهم، وما اقترفوه من قلب الحقائق، وحرمان أنفسهم من نِعَمِ الله، وعلى رأس تلك النِّعمِ ما في القرآن من الموعظة والشفاء؛ إذ التَّهديدُ والتَّعنيف والتَّقريع خطابًا أشدُّ منه غَيبةً، وللإيماء بأنَّ حالهم لا يغيبُ عنه سبحانه.

التهديدُ والوعيدُ خِطابًا أوقعُ منه غيبةً

معنى ﴿مَّآ﴾:

﴿مَّآ﴾ في قولِه تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم﴾ تحتمل وجهين:

(مـــا) إمّـــا موصوليَّة تفيدُ العـمومَ، وإمّا استفهاميَّة تفيدُ التَّنبيه

الأول: اسم موصول بمعنى الذي، والعائد محذوف، أي: ما أنزله، وهو في موضع نصب بـ أرأيتم، وهو المَفْعول الأول، وجملة ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ هي المفعول الثاني، وغرض ﴿مَّآ﴾ في الآية العمومُ والتفخيم لنعمِ الله العظيمة التي لا تُحصى، فهي منزَّلةٌ من العظيم سبحانه.

الثاني: اسم استفهام قُدِّم لصدارته، وهو في موضع نصب

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/208.

بـ﴿أَنزَلَ﴾[1]، وهي مُعَلِّقَةٌ لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾ فتكون ﴿مَّآ﴾ بمعنى أي، والتقدير: أخبروني أيَّ شيء أنزل الله لكم. أو في محلِّ رفعٍ بالابتداء، والجملةُ من قوله: ﴿ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾ خبره، والعائدُ محذوفٌ، والتقدير: أخبروني أيُّ شيء أَذِن لكم فيه؟ وهذه الجملةُ الاستفهاميّةُ معلِّقَةٌ لـ ﴿أَرَءَيْتُم﴾[2]، وغرض ﴿مَّآ﴾ في الآية: هو التنبيهُ على عِظم هذا الرزق الحلال الذي خلقه الله للانتفاع به، فإذا بِهم يُحرِّمون بعضَه حمقًا وضلالًا.

سرُّ التَّعبير بالماضي ﴿أَنزَلَ﴾:

أعظمُ الافتراءِ أن يكون في النِّعمِ الثّابتة والأرزاق المتحقِّقة

عبَّر البيانُ القرآنيُّ عن إنزالِ الرزق بصيغة الماضي ﴿أَنزَلَ﴾ دون المضارع، مع أنَّ الرِّزقَ ينزل عليهم بتجدُّدٍ واستمرارٍ؟ وذلك لأمرين؛ وهما: الدَّلالة على تحقُّق وقوع إنزال الرزق، فهم قد عاينوه، ويتقلَّبون في آثاره، والآخر: مناسبة قوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتُم﴾ التي تعني: أخبروني، وأعلموني، والإخبار يكون عن شيء حدث، وانقضى.

نكتةُ التَّعبيرِ بالإنزالِ ﴿أَنزَلَ﴾:

الـرِّزقُ والشَّرع نـــــازلان مـن السَّماءِ فالأوَّل قــوت الأبـــدانِ والآخـــــر قـوت الأرواح

معنى أنزل، أي: خلق وأنشأ، كقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الزمر: 6]، وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ﴾ [الحديد: 25][3]، وقد عبَّر البيانُ الإلهيُّ عن الخلق بالإنزال؛ لأمور:

الأول: التنبيه على أنَّ الرِّزق مقدَّرٌ في السماء محصَّلٌ منها.

الثّاني: بيان أنَّ ما يتوقَّف على وجود الرِّزق أو بقائه يكون بأسباب سماويةٍ من المطر والكواكبِ في الإنضاج والتلوين[4].

(1) النحاس، إعراب القرآن: 2/151.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/226.
(3) الكرماني، غرائب التفسير وعجائب التأويل: 1/487.
(4) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.

الثالث: الإشارة إلى أنَّه لا يمكن للمشركين ادِّعاؤه لأصنامهم؛ لنزولِ أسبابه من موضعٍ لا تعلُّق لهم به بوجهٍ[1].

الرابع: الإيماءُ إلى أنَّ هذا الرِّزق رحمةٌ نازلةٌ من الله[2]، وهو لصالح الإنسان، لأنَّ معنى أنزل: أوجد وخلق من أعلى، وما دام كلُّ شيء قد وُجد بمشيئة من هو أعلى من كلِّ الوجود، فالإيجادُ إذًا لصالحك أيُّها الإنسان مباشرة أو بوسائط[3].

الخامس: الإشارةُ إلى نزول الشَّرائع، فكما أنَّ الله هو الذي أنزل الرِّزق؛ فهو الذي أنزل الشَّرع، فوجب على النّاس اتِّباعُ شرعه، وعدمُ انتهاك أمره، وشكر رزقه وعدم الافتراء فيه.

بلاغةُ التَّصريحِ بلفظِ الجلالة: ﴿ٱللَّهُ﴾:

للرِّزقِ هيبةٌ ومحبَّةٌ في نفوسِ العبادِ سرُّها لفظُ الجلالة

صرَّح البيانُ الإلهيُّ بالفاعل ﴿ٱللَّهُ﴾ سبحانه، فلم يأتِ به مضمرًا فيقول: (أرأيتم ما أنزل لكم من رزق)، كما أنَّه عبَّر بالاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ بدلًا من لفظ الرُّبوبيَّة (ربّكم) فلم يقل: (أريتم ما أنزل ربُّكم من رزق) ومن المعلوم أنَّ الرِّزقَ من مقتضيات توحيد الرُّبوبيَّة؛ وذلك لأمرين:

الأول: تأكيدُ عظمة الرزق المنزَّل من الله، فاسم (الله) يدلُّ على صفات الكمال والقدرة والعظمة للملك الأعلى المحيط بكلِّ شيء عظمة وعلمًا التي منها الغنى المطلق[4]، وعليه فالقادر العظيم سبحانه لا يخلقُ إلّا عظيمًا.

الآخر: أنَّ لفظ الألوهيَّة (الله) يدلُّ على التفرُّد بخلاف لفظ (الربِّ) الذي قد يُضاف للمخلوقين، فنقول: ربُّ الأسرة وربُّ العمل، وفي هذا إشارةٌ إلى تفرُّده سبحانه في إنزال الرزق.

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3597.
(3) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 10/6007.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/147.

غرضُ ذكرِ قيدِ ﴿لَكُم﴾ وتقديمه على ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾:

قيَّد البيانُ الإلهيُّ إنزالَ الرزق من الله بـ﴿لَكُم﴾، وقدَّمه على قوله: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ﴾؛ للامتنانِ على العبادِ، فإنَّ هذا الرِّزق أنزله الله لهم، فهم مقصودون بالإنزالِ، ففيه ترغيبٌ بالإيمان، وتخجيلٌ من الكفران، وللدَّلالة على أنَّ المرادَ بالرزق ما حلَّ لهم[1]، أي: رزقٌ خاصٌّ بهم[2]؛ لأنَّه بمعنى ما قُضي لانتفاعهم، والمقتضي لانتفاعهم هوَ الحلال، فيكون الرِّزق المذكور هنا قسمًا منه، وهو القسم الحلال، ولذلك وبَّخهم على جعلِ بعضه حرامًا[3].

خطابُ (لكم) ترغيبٌ بالإيمان، وتخجيلٌ من الكفران

معنى ﴿مِّن﴾:

تحتمل ﴿مِّن﴾ في قولِه تعالى: ﴿مِّن رِّزْقٍ﴾ وجهين:

الأوَّل: بيانُ جنسِ الرزق، أي: بيَّنت أنَّ ما أنزله الله هو الرزق، والمعنى: أيَّ رزق كان[4]، وهذه تفيد عموم ما خلقه الله، وسخَّره لنا من سائر منافع الكون، وفيه إشارةٌ إلى أنَّ الأصلَ فيه الإباحةُ، إذ الأصل في الأشياء الإباحة[5].

من اعتدى على شرعِ الله في التَّحليلِ والتَّحريم؛ فقد أعظمَ الفرية

الثاني: التَّبعيض، والمعنى: أنَّ ما أنزلهُ الله هو بعضِ الرزق، وقد ضعَّف ابن عرفة ذلك، ورجَّح كونها لبيان الجنس[6].

وعلى القول بأنَّها بيانيَّة ففيها بيانُ أنَّ المشركين عندهم قابليَّة الاعتداءِ على التَّشريعات، فهم يعتدون على أيِّ رزقٍ كان، فيجعلونه حلالًا وحرامًا، وهذا وإن لم يستوعب الأرزاق فعلًا، لكنَّه قد

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(2) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.
(3) الشهاب الخفاجي، عنايه القاضي: 5/41، والقونوي وابن التمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 9/503.
(4) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.
(5) رشيد رضا، تفسير المنار: 11/336.
(6) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/345.

استوعبه قوَّةً، فمن اعتدى على حقِّ الله في التَّشريعِ في رزقٍ واحدٍ؛ فقد اعتدى على سائر الأرزاق، وفي الآيةِ تلويحٌ لمن يحرِّم، ويحلِّل من دون الله تعالى في سائر الزَّمان.

دلالةُ الفاءِ في: ﴿فَجَعَلْتُم﴾:

المسارعةُ في الاعتداء على حقِّ الله في شرعه كفرانُ نعمةٍ ونكرانُ إحسان

الفاء في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾ عاطفة، والمعطوف عليه جملة صلة الموصول (أنزل لكم)، وهذه الفاء العاطفة تفريعيَّةٌ، أي: (أرأيتم الذي أنزل الله لكم فجعلتم منه)[1]،وهي تفيدُ التعقيب الذي يُشير إلى مسارعتهم في مقابلة رزق الله ونعمه بالافتراء والشِّرك والاعتداء على حقِّ الله وحده في تشريعِ التحريم والتَّحليل الديني، وهذا في غاية النُّكران، كما أنَّها تحمل في طيّاتها معنى التَّعجُّب والإنكار؛ إذ إنَّ من يُرزق الرزق يقابله بالشُّكر والإحسان، لا الاعتداء والنكران، وهم قد قابلوا إحسانَ الله لهم بالاعتداء على حقِّه في التَّشريعِ، وهذا في غاية الكفران.

فائدةُ ذكرِ (من):

إذا لم يكن عَوْنٌ من الله للفتى؛ فـأوَّلُ ما يجني عليه اجتهادُهُ

عبَّرَ القرآن بحرف الجرِّ (من) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾، ولم يقلْ: (فجعلتموه)؛ للدَّلالة على معنى التَّبعيض، كما هو فعلهم؛ إذ إنَّ (من) تبعيضيَّة، والمعنى: أخبروني عمّا أنزل الله من رزق حلالٍ لكم للانتفاعِ به، فجزَّأتموه، أو بعَّضتموه، أي: جعلتم بعضه حرامًا وبعضه حلالًا، وقلتم: هذا حلال، وهذا حرام بزعمكم افتراءً على الله[2].

وهذا التَّعبير يومئ إلى أنَّهم حرَّموا، وحلَّلوا بناءً على تفصيلاتٍ يرونها، أي: إنَّهم لم يُشرِّعوا في التَّحليل والتَّحريم إلّا ولهم سابق نظرٍ في ذلك، فدلَّ هذا الحرف على التَّقسيم، أي: جعلتهم منه

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير: 11/208.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156، والزحيلي، التفسير المنير: 11/204.

حرامًا باعتباراتٍ، وجعلتم منه حلالًا باعتبارتٍ أخرى، وهذا يدلُّ على أنَّ ما يطرأ على العقل قد يقضي على صاحبِه باقترافِ الذُّنوبِ العظيمة، وأنَّ على الإنسان ألّا يعتدي على الشَّرع بحجَّة ما يراه صوابًا ومصلحةً، فإنَّ المصلحة هي في حكم اللّه تعالى لا في حكم سواه.

نكتةُ حذفِ (منه) في: ﴿وَحَلَٰلًا﴾:

إذا تساوى الإثباتُ والحذفُ؛ فالحذفُ أبلغ

حذفَ البيانُ القرآنيُّ لفظة (منه) في قوله تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾، فلم يقلْ: (فجعلتم منه حرامًا ومنه حلالًا) رغم أنَّ الأصل أنْ يُعاد؛ إلا أنَّه لم يُعِدْهُ اختصارًا؛ إذ دلَّ عليه دليلٌ، ولم يَتأثَّرِ المعنى بحذْفِه، فكان الإيجازُ أبلغَ.

بلاغة الطباق في: ﴿حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾:

شمولُ افترائهم للتحليلِ والتحريمِ دليلٌ على كمالِ قبحِ صنيعهم وبشاعةِ فعلهم

جمعَ البيانُ القرآنيُّ بين لفظين متقابلين في المعنى، هما: الحرام والحلال؛ للدَّلالة على بشاعة فعلهم وكمالِ قبحه؛ إذ جمعوا بين تحريم الحلال وتحليل الحرام، فهم أتوا على الطّامتين، ولم يكتفوا بإحداهما عن الأخرى، وهذا دليل الاستقصاء، فهم لم يحرِّموا فحسب، أو العكس، بل أتوا بالأمرين معًا، ولم يكتفِ النَّظم بالإشارةِ إلى الآخر بذكر أحدهما، كأن يقول: (فجعلتم منه حرامًا)؛ للنَّصِّ على أنَّهم صنعوا العظيمتين، وارتكبوا الحماقتين.

الغرض من تقديم ﴿حَرَامًا﴾ على ﴿وَحَلَٰلًا﴾:

التَّشدُّدُ في الدِّين منهجُ الجاهلين الأوَّلين

قدَّم البيان الإلهيُّ لفظة ﴿حَرَامًا﴾ على لفظة ﴿وَحَلَٰلًا﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا﴾؛ وذلك لأمورٍ:

الأوَّل: لأنَّه خلافُ الأصل، فالرِّزقُ حلالٌ في الأصل، فأوَّل ما يظهر أثرُ الجعلِ - وهو التصيير - فيما حُرِّم، أي: صيَّرتم منه حرامًا على أنفسِكم، ولم يكن كذلك بل كان حلالًا بمقتضى أنَّ اللّه لم يحرِّمه.

الثّاني: لدورانِ التوبيخِ على تحريم الحلال أكثر[1]؛ إذ إنَّه يشير إلى زيادةِ انطماسِ البصيرة عندهم، حيث إنَّ تحليل الحرام فيه طلبٌ للذَّةٍ دنيويَّةٍ محرَّمة تطلبها النَّفس، أمّا تحريم الحلال؛ ففيه منعٌ للذَّةٍ فُطرت النَّفس على طلبها.

الثّالث: الإشارةُ إلى أنَّ تحريمهم هو تشديدٌ على أنفسِهم كما قال تعالى في حقِّ النَّصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ٱبْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَٰهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: 27]، فهم يُسارعون إلى التَّشديدِ على أنفسهم؛ لظنِّهم أنَّ التَّشديدَ هو ما يُقنع النّاسَ بهم؛ ليظهروا بمظهر الحرص على الدّين.

الرّابع: الإيماءُ إلى أنَّ هناك مصلحة خفيَّةً لدى من يُحرِّم، فهو يمنع النّاس من بعض الحلال؛ لينتفع هو به، وهذا شائعٌ في خَدَمة الآلهة، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ ۚ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِى بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا ۖ وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ ۚ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾﴾ [الأنعام: 138 - 139].

غرضُ الاستفهامِ في: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾:

يحتمل الاستفهام في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ وجهين:

من تعدّى شرعَ الله؛ وُبِّخ بعد إقـرارِه بباطلِه وأُنكِر عليه

الأول: تقريريٌّ، وهذا على عدِّ ﴿أَمْ﴾ متَّصلة معادلة للهمزة، والمعنى: (أخبروني الله أذن لكم في التَّحليل والتحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكذِّبون على الله في نسبة ذلك إليه)"[2]، "فهو استفهامٌ لطلبِ التعيينِ وهو الأَوْلى"[3]، وفي هذا استهزاءٌ بهم وتوبيخٌ

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(2) الزمخشري، الكشاف: 2/354.
(3) الصّاوي، حاشيته على تفسير الجلالين، ص: 807.

لهم توبيخًا هو في أحكَمِ مواضعه، وقد ساقه على طريق السؤال بحيث إنَّهم لا يقدرون على الجواب أصلًا بغير الإقرار بالافتراء[1].

الثاني: إنكاري؛ باعتبار ﴿أَمۡ﴾ منقطعة تفيد معنى الإضراب الانتقالي من التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تُفيده همزتُها من التَّوبيخ على الافتراء عليه سبحانه وتقريرِه[2]، أي: الاستفهام الإنكاري هنا إنكارٌ للواقع، فهو بمعنى التَّوبيخ[3]، قال الجرجاني: "واعلم أنَّ الهمزة فيما ذكرنا تقريرٌ بفعلٍ قد كان، وإنكارٌ له لِما كان، وتوبيخٌ لفاعله عليه"[4]،وكفى بهذا زجرًا بليغًا عن التجوُّز فيما يُسأل عنه من الأحكام، وباعثًا على وجوب الاحتياط فيه، وألّا يقولَ أحدٌ في شيء: جائزٌ أو غير جائزٍ إلّا بعد إيقانٍ وإتقان، ومن لم يوقن؛ فليتَّقِ اللّٰه، وليصمتْ، وإلّا فهو مفترٍ على اللّٰه[5].

الغرضُ من تقديمِ المسند إليه: ﴿ٱللَّهُ﴾:

الإذنُ في التَّشريعِ متوقِّفٌ على إذنِ اللـه تـعـالى وما كان بدونه فباطلٌ

قدَّم البيانُ القرآنيُّ المسند إليه، وهو الاسم الجليل ﴿ٱللَّهُ﴾ على المسند الفعلي ﴿أَذِنَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿قُلۡ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمۡ﴾، ولم يقل: (قل أأذن اللّٰه لكم؟)؛ لثلاثة أمور:

الأول: زيادةُ التعظيم، فإنَّ ذكْرَ لفظ الجلالةِ فيه تعظيمٌ؛ فإذا قُدِّم؛ زاد التَّعظيمُ، وذلك لزيادة تربية المهابة في القلوب، وإدخال الروعة فيها؛ تحذيرًا وتخويفًا لهم من الكذبِ والافتراء على اللّٰه بادِّعائهم أنَّه قد أذن لهم في تحريم ما أحلَّ، وتحليل ما حرَّم؛ فالافتراءُ على العظيم أمرٌ عظيم.

الثاني: مناسبةُ السياق الذي هو تعظيم اللّٰه تعالى في مواجهة

(1) البقاعي، نظم الدرر: 9/147.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3597.
(4) الجرجاني، دلائل الإعجاز: 1/114.
(5) الزمخشري، الكشاف: 2/354.

اعتدائهم على حقِّ الله تعالى؛ وهو تشريع التَّحريم والتَّحليل الديني الذي ليس لأحدٍ سواه حقٌّ في تشريعهما.

الثالث: الاختصاص؛ ليكون المعنى: أنَّ الإذن والشَّرع مختصٌّ بالله وحده سبحانه، فلا يكون إلّا منه، فلمّا أنكر أن يكون الله قد أذن لهم، فهذا يُفيد أنَّه لا أحد له أن يأذن سواه.

دلالةُ اختيارِ ﴿أَذِنَ﴾:

كـثرةُ المعاني للَّفظ في سياقِه سعةٌ تناسبُ سعةَ رزقِ الله

عبَّر القرآنَ بمفردة ﴿أَذِنَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ﴾؛ لاتِّساع دلالتها لمعانٍ عدَّة مجتمعة؛ فقد جاءت في الآية موافقةً لمعانيها اللُّغوية من الإباحة، والقبول، والتَّمكين مع العلم بقدر ما مُكِّن فيه، والإطلاق، والرخصة في الأمر، والإعلام، والإجازة بالشيء؛ فأعطتْ بذلك ثراءً في المعنى، وهذه المعاني مجتمعة تدلُّ على أنَّ الإنكارَ على القوم كان لجميعِها، فهو يُنكر عليهم ادِّعاء إباحة التَّحليل والتَّحريم، وقبوله بعد ذلك، والتَّمكين في ذلك، والتَّرخُّص فيه، وأنَّ الله أعلمهم به.

معنى اللّامِ في: ﴿أَذِنَ لَكُمْ﴾:

ادّعـاءُ التبليغ عن الله اعترافٌ بالوحي الذي ينكرونه

(اللام) في قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لَكُمْ﴾ حرف جرٍّ يفيدُ التبليغ؛ لدخولها على السامعِ لقولٍ، أو ما في معناه، وهو الإذن هنا، والمعنى: هل الله هو الذي بلَّغكُم ذلك التحليل والتحريم بوحيٍ من عنده؟

بلاغةُ استعمال ﴿أَمْ﴾ حجاجيًّا:

المشركون يدورون في رحى الباطل ولا مخرج لهم إلّا بالاعتراف

﴿أَمْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ تحتمل وجهين:

أحدهما: متّصلة عاطفة، وهي معادلة لهمزة الاستفهام، والتقدير: أخبروني: الله أَذِنَ لكم في التَّحليلِ والتَّحريم، فأنتم تفعلون ذلك بإذنه، أم تكْذِبون على الله في نسبةِ ذلك إليه؟

الآخر: منقطعة، ويكون الاستفهام للإنكار، ومعنى (بل) فيها الإضرابُ والانتقال من التوبيخ والزجر بإنكار الإذن إلى ما تفيده همزتُها من التوبيخ على الافتراء وتقريرِه[1]، والتقدير: بل أتفترون على اللّه؟ وذلك تقريرٌ لافترائهم.

والظاهر هو الأول؛ إذ المعادلةُ بين هاتين الجملتين اللَّتين بمعنى المفردين واضحةٌ، إذ التقدير: أيُّ الأمرينِ وَقَعَ: إذْنُ اللّه لكم في ذلك، أم افتراؤكم عليه؟[2]، أي: أنتم أهل حقٍّ أم أهل باطل، ومقصودُ هذه المعادلة التَّوصُّل إلى الحقِّ بالاعترافِ بما اقترفته أيديهم؛ لأنَّهم إن اعترفوا بالافتراء، فهذا دليل صارخٌ على باطلِهم، وإن ادَّعوا الإذن فعليهم بالدَّليل، فأحاط بهم الكذب، فظهر باطلهم على الوجهين، وهذا وجه استعمال (أم) في هذا الحجاج.

نكتةُ تقديمِ الجارِّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾:

الافـــتراءُ على العظيمِ برهانُ الـجـرأةِ على الـحـقِّ وأمـارةُ تجاوز الصِّدق

قُدِّم الجارُّ والمجرور ﴿عَلَى ٱللَّهِ﴾ على الفعل ﴿تَفْتَرُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾، وهما متعلِّقان به؛ لأمور:

الأول: الإشارةُ إلى زيادةِ التشنيع عليهم من حيث إنَّهم يدَّعون أنَّهم أشدُّ النّاس تبرُّؤًا من الكذب، وقد خصّوا اللّه بتعمُّد الكذبِ عليه[3].

الثاني: الدَّلالة على كمالِ قبحِ افترائِهم؛ إذ الافتراءُ على العظيمِ سبحانه جرمٌ عظيم.

الثالث: تأكيدُ تبكيتهم بالحجَّة وإسكاتهم؛ إذ إنَّه هو سبحانه الذي يفترون عليه المتفرِّد بالعظمة الذي لا يعجزه كيدهم.

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(2) السمين الحلبي، الدر المصون: 6/227.
(3) البقاعي، نظم الدرر: 9/148.

الرابع: مراعاةُ فواصلِ السورة[1] التي تنتهي معظمها بالواو والنّون، والتي تتناسب مع طريقة عرضِ سورة يونس في إيقاع رخيٍّ، ونبضٍ هادئ، وسلاسةٍ وديعة.

الخامس: إفادة القصر، كأنَّه قيل: بل أ على الله تعالى خاصّةً تفترون؟ على اعتبار (أم) منقطعة[2]، وهذا فيه إشارةٌ إلى فساد تفكيرهم، فأيُّ فسادٍ في التفكير أن يكون افتراؤهم على الله خالقِهم وخالق الوجود كلِّه، وأنَّهم يعترفون بالخالق، وهو الذي لا شريك له في خلقه، ولكنَّهم يعبدون الأحجار لتكون شافعة عنده، فكانوا سخفاء في شركهم وفي تسويغهِ[3].

سرُّ إظهارِ ما حقُّه الإضمارُ: ﴿ٱللَّهِ﴾:

كلَّما عَظُمَ مقامُ المُفترى عليه؛ عَظُمَ قبحُ الافتراء

أظهر البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل ﴿ٱللَّهِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ ولم يضمره، أي: لم يقل: (أم عليه تفترون)؛ للدَّلالة على كمالِ الافتراء[4]، فكلَّما عَظُم مقامُ المفْتَرى عليه؛ عَظُم قبحُ الافتراء، فكيف إذا كان الافتراء على الله العظيمِ الملكِ الأعلى صاحبِ صفات الكمال المطلق، وكذلك في إظهار الاسم الجليل تربيةُ المهابةِ، وإدخالِ الروعة والتخويف من الافتراء على الله، فالمفترى عليه هو الله تعالى، لا أحدٌ سواه، فليحذر المفترون الاستمرار فيما هم فيه.

نكتةُ حذفِ مفعولِ ﴿تَفْتَرُونَ﴾:

الافتراءُ سلوكٌ قائمٌ بذاته عند من يريدُ تحقيقَ لذّاته

يحتمل حذفُ المفعول به في قوله تعالى: ﴿تَفْتَرُونَ﴾ أحدَ وجهين:

الأول: إمّا أنَّه لم يذكره لتعلُّق قصدِ المتكلِّم سبحانه بالإعلام بمجرَّد إيقاع الفعل للفاعل، فاقتُصر عليهما، ولم يَذكر المفعول، ولم

(1) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156، والشوكاني، فتح القدير: 2/518.
(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 4/156.
(3) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 7/3598.
(4) الشوكاني، فتح القدير: 2/518.

يَنْوِه، إذ المَنْوِيُّ كالثابت، ولا يُسمّى حينئذٍ محذوفًا؛ لأنَّ الفعل نُزِّل منزلة ما لا مفعول له، فهو كالفعل اللازم غير المتعدّي، والمعنى: أم على الله تفعلون الافتراء عليه.

الثاني: حُذف اختصارًا؛ لقيام الدَّليلِ عليه من سياق الكلام، وهو الإذن من الله بهذا التغيير، والمعنى أم على الله تفترون إذنه لكم بالتَّحريم والتَّحليل.

دلالةُ الآية على صحَّة السَّبر والتَّقسيم:

صورةٌ بديعةٌ من صورِ الاستدلالِ وإقامةِ الحجَّة على المشركين

في الآية الكريمة: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلَٰلًا قُلْ ءَآللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى ٱللَّهِ تَفْتَرُونَ﴾ دلالةٌ على صحَّة الاستدلال بالسبر والتقسيم، وهو حصرُ الأقسام وإبطالها سوى المدَّعى عليه؛ إذ المعنى: إنَّكم أيُّها الكفّار حرَّمتم بعض ما رُزقتموه، فلا يخلو تحريمكم لذلك إمّا أنْ يكون بإذنٍ شرعيٍ، أو افتراءٍ منكم، والأوَّل باطل؛ لأنَّ الشرع خصمكم، وهو ينكر الإذنَ لكم فتعيَّن الثاني، وهو أنَّكم حرَّمتموه افتراءً على الله وكذبًا عليه، وما كان كذلك لا يُلتفتُ إليه[1].

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الافْتِراءُ والكَذِبُ:

الافـتـراءُ كـذبٌ عظيمٌ مختلقٌ متعمَّدٌ بقصدِ الإفـسـاد، والـكـذبُ إخبارٌ بخلافِ الواقع

يوجد تقارب دلاليٌّ بين لفظي الافتراء والكذب؛ حيث يشتركان في أنَّهما نقيضُ الصدق، ولكنْ بالرجوع إلى معنى كلٍّ منهما في اللغة، وفي الاستعمال يتبيَّن أنَّ:

الافتراء: أصل الفَرْي: قطعُ الشيء وشقُّه لإفساده أو لإصلاحه، فَرَيْتُ الشيء: قَطَعته وشَقَقْته، وفَرَيْتُه: أصلحته، والتَّفَرّي: التَّشَقُّقُ، وفَرى فلانٌ الكذب: إذا اختلقه وابْتَكره من عند نفسهِ، والفِرية:

(1) الطوفي، الإشارات الإلهيّة إلى المباحث الأصولية، ص: 329.

الكذب والقَذف، والفَرِيُّ: الأمر العظيم، وفلانٌ يَفْرِي الفَرْيَ؛ إذا كان يأتي بالعجب[1]، وقيل: فَرَى للإفساد، وأفرى للإصلاح[2]، وقد استعمل القرآن الفري والافتراء في الكذب والشرك والظلم[3].

والكذب: خلاف الصدق[4]، وكَذَبَ: أخبرَ بخلاف ما هو عليه في الواقع[5].

إذًا: يتميَّز الافتراء بأنَّه: اختلاقُ ما لا حقيقة له، ومنه اختلاق الكذب، وفيه معنى: الشيء العجيب النادر والعظيم، ويكون بقصد الإفساد، ويمكن القول بأنَّ الافتراء "هو الاختلاق والكذب المتعمَّد"[6]، فهو كذبٌ عظيمٌ مختلقٌ متعمَّدٌ بقصد الإفساد، وأمّا: الكذب؛ فهو الإخبار بخلاف الواقع، ولو لم يتعمَّد الكذب.

(1) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (فري).
(2) الزبيدي، تاج العروس: (فرى).
(3) المفردات، الراغب، ص: 634.
(4) ابن فارس، مقاييس اللغة: (كذب).
(5) مجمع اللغة العربية في القاهرة، المعجم الوسيط: (كذب).
(6) الشّعراوي، تفسير الشّعراوي: 7/3961.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1445هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 19 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-768-16-6
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 19 : المجلد التاسع عشر، سورة يونس من الآية 15 إلى الآية 75.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-768-16-6
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-6365726 بتاريخ 2024/02/07م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»